

## قطعوا الزهرة فماذا قالت..!؟

محمد يوسف عدس

(١)

"من أبرز سمات النظام الإسلامي ومقوماته - عند فيلسوف الإسلام على عزت بيجوفيتش- أنه يقوم على ثلاثة عناصر لا يمكن الاستغناء عنها .. وهي: الاستقلال والحرية والديمقراطية."

ولكي نفهم هذه النظرية دعنا نفحص -في عُجالة- واقع النضال والاستقلال في تاريخ الشعوب المسلمة:

لقد ناضلت هذه الشعوب حتى تخلّصت من المستعمر الأجنبي الذي كان محتلاً لأراضيها، ولكنها لم تحصل على استقلال حقيقي ؛ فقد وجدنا أماناً نوعاً من الاستقلال يعتنق أهله فكراً أجنبياً وطريقة أجنبية في الحياة .. استقلالاً يستند إلى مساعدات أجنبية وقروضٍ ربويّة ورؤوس أموال أجنبية ، ودعم أجنبي بصفة عامة . "

واستطرد قائلاً: "بالتالي فإن حقيقة ما اكتسبته هذه الشعوب، لا يدعو أن يكون استقلالاً شكلياً محضاً ، ولكنها لم تحصل على حرية حقيقية ؛ لأن كل حرية في صميمها هي حرية روحية ، وأي استقلال لا يحقق هذا الشرط سرعان ما يُختزل إلى مجرد السّلام الوطني وعلمٍ جديد.

وهذا استقلال وهمي ، ينطوي على تبعية مؤكدة للقوى الأجنبية ، بعكس الدولة التي تسعى لإقامة نظام إسلامي .. فما هو هذا النظام الإسلامي..؟! -لن أذهب بعيداً عن وجهة نظر أستاذنا على عزت بيجوفيتش .. فقد درس هذه القضية دراسة مستفيضة ، وكتب فيها العديد من المقالات وخصّص لها أكثر من كتاب .. فماذا انتهى إليه بيجوفيتش في هذه القضية..؟! "

- إنه يقول:

لا يمكن أن يقوم نظام إسلامي بدون استقلال وحرية" .. وهذا شقٌّ واحد من القضية ، أما الشق الثاني فهو "أنه لا توجد حرية أو استقلال حقيقيين بدون إسلام..". ولا يدعك بيجوفيتش غارقاً في دهشتك ، وإنما ينتقل مباشرة ليشرح لك هذا اللغز.. فيقول:

هذا الشق الثاني من القضية ينطوي على معنى مزدوج:

المعنى الأول- أن الاستقلال "لا يكون استقلالاً حقيقياً ودائماً إلا إذا كان نتيجة لتحقيق الاستقلال الروحي والفكري .. وكان علامة على أن شعباً قد وجد هويته واكتشف قوته الجوّانيّة ؛ فبدون هذا يصبح الاستقلال الذي حصل عليه فارغاً من المعنى ، غير قابل للاستمرار .. وتأكيذاً لهذه الحقيقة يقول بيجوفيتش:

إن الشعب المسلم بتأكيده على ممارسة الإسلام والفكر الإسلامي في حياته العملية ، يرى في هذا تطابقاً مع ذاته ، كما يستشعر أن تحرره الروحي شرطٌ لتحرره الاجتماعي والسياسي أما المعنى الثاني فيلخصه بيجوفيتش في نقطة جوهرية يريد بها أن تكون معياراً نقيس به ونتوخاه في النظر إلى أي نظام في دولة مسلمة .. حيث يقول:

إن الدعم الحقيقي الذي يمنحه الشعب المسلم لأيّ نظام في السلطة ستجده -دائماً- يتناسب تناسباً طردياً مع مقدار ما يتمتع به النظام من طابع إسلامي ؛ فكلما ابتعد نظام الحكم عن الإسلام قلّ دعم الشعب له.. وهكذا تتعرّى الأنظمة المعادية للإسلام ، حتى تصبح محرومة تماماً من أي دعم شعبيّ..

هنا يضع بيجوفيتش يدك على نقطة خطيرة أخرى يكشف لك فيها عن سمات هذا النوع من الأنظمة الحاكمة ، وأبرزها أنه يجد نفسه -طوعاً أو كرهاً- مدفوعاً إلى البحث عن هذا الدعم لدى القوى الأجنبية .. وتستطيع أن تقول وأنت مطمئن : إن التبعية التي تغرق فيها هذه الأنظمة هي نتيجة مباشرة وتلقائية لتوجهاتها المعادية للإسلام .. وتتفاقم الأمور عندما تشعر هذه النظم بالمقاومة والعداء الذي يكنه الشعب لها ، فتلجأ إلى العنف لتمرير سياستها بالقوة الباطشة ."

فهل عنّ لك أن تطبق هذه المعايير على نظام الحكم العسكري الجاثم على صدر مصر..؟

عندك الآن ثلاثة معايير للحكم على النظام الحاكم:

أولاً: العداء السافر للإسلام ، مع تعاضم الوعي الشعبي بهذه الحقيقة .

ثانياً: استخدام البطش في الداخل لتمرير سياساته القمعية .

ثالثاً- الاستجداء المهين المُذَلّ الذي يبديه الانقلاب لكل القوى الأجنبية في الخارج .. حتى لتنزلق على لسان قائده وهو في لحظات انفعال غير محسوب فيقول: "لو ينفع أبيع نفسي لبعثها".

لقد تنازل عن مياه النيل لأثيوبيا ، وتنازل عن الجزيرتين ؛ صنافير وتيران للعاهل السعودي وشريكته من الباطن إسرائيل ، ويتنازل عن سيناء بالقطّاعي وبدون ضجيج لإسرائيل .. ويتنازل عن مناطق الغاز في مياه مصر الإقليمية بالبحر المتوسط لقبرص وإسرائيل أيضاً من الباطن . وقلت ولا زلت أقول: إن دور قناة السويس قادم للتنازل .. بل إن مصر كلها معروضة للبيع ، وهي تضيع جزءاً جزءاً ، طالما بقي هذا الانقلاب الغادر السفيه مسيطراً على السلطة في مصر.. أما الذي يريد أن يبيع نفسه كما يزعم -من أجل مصر- فالمصريون يعلمون أنها بعض أعراض هذيان مَرَضِيَّةٍ لشخص يبذو فاقداً لاتزانه العقلي.. ويعلمون أن مثل هذا لو حدث بالفعل من شخص معتوه - فلن يشتريه أحد بثمن حذاء قديم !!

(٢)

بمناسبة المحاكمات الهزلية لقادة الإخوان المسلمين: إبتداء من الرئيس الوحيد المنتخب انتخاباً ديمقراطياً لأول مرة في تاريخ مصر ..المخطوف والمسجون خلف أسوار من حديد وزجاج يحجب صوته عن الجماهير، في قاعة المحكمة .. وهذه بعض عجائب الانقلاب العسكري الذي يزعم أنه جاء لإنقاذ البلاد وإصلاحها – بهذه المناسبة أقول:

الإصلاح لا يصنعه أصحاب الانقلابات العسكرية.. فمآلهم أن يكنسهم التاريخ في ترابه ولا يذكرهم إلا بلعناته.. ولا يصنع التاريخ والإصلاح الباطشون ولو كانوا محصنين بالجيوش والأسلحة.. إنما يصنع التاريخ وقيم الإصلاح والنهضة أولئك العباقرة من أصحاب الرسائل الذين يملكون فكراً أقوى من أفكار مجتمعاتهم وعصرهم.. والذين لديهم رسالة مقدسة لإيصالها وإقناع مجتمعاتهم بها.. فإذا انتصرت أفكارهم و اعتنق المجتمع رسالتهم فهذا هو النصر الحقيقي الذي يقلب المجتمعات رأساً على عقب.. ويبقى في ذاكرة التاريخ رصيذاً وأملاً لملايين البشر.

وما زلنا مع أفكار على عزت بيجوفيتش المبهرة .. ومع درسه الذي لم ينته بعد .. فقط ننتقل إلى واقعة مشهودة من تاريخ حياته الحافل بالدروس والعبر.

ففي محاكمة عبثية -مثل محاكمات الإخوان المسلمين في مصر- لعلى عزت بيجوفيتش مع نخبة من إخوانه المفكرين المسلمين في سراييفو سنة ١٩٨٣م.. و بعد أن انتهت شهادة الشهود الذين تم تلقينهم من قِبل الشرطة السرية .. وقف الرجل يدافع عن نفسه.. فماذا قال للمحكمة.

" إنني أحب يوغسلافيا ولكني لا أحب هذه الحكومة .. وأنا لا أحَاكَمُ هنا في هذه القضية لأنني خالفتُ قوانين البلاد، ولكن لأنني خالفت بعض قواعد غير مكتوبة.. فرضتها عُصبة من أصحاب السلطان والنفوذ .. أباحت لنفسها أن تشرّع للناس ما هو مسموح به وما هو محرّم عليهم، دون أي اعتبار للقانون أو الدستور".

لم يعتذر بيجوفيتش ولم يلتمس لنفسه العفو ؛ فقد كان يعلم أن المقصود بالمحاكمة هو الإسلام أكثر من أي شئ آخر .. وأن الأحكام سابقة التجهيز.. فألقى بقفاز التحدي في وجه المحكمة وهو يقول: أود أن أقرر هنا أنني مسلم وسأبقى كذلك تحت كل الظروف.. فأنا اعتبر نفسي مناضلاً من أجل الإسلام في هذا العالم.. وسأظل ملتزماً بموقفي ما دام في صدري نفس يتردد .. ذلك لأن الإسلام بالنسبة لي هو اسم آخر لكل ما هو رافع ونبيل في هذه الحياة .. إنه اسم لوعدٍ .. وأمل في مستقبل أفضل للشعوب المسلمة ؛ أن يحيوا بحرية وكرامة.. مستقبل كل شئ فيه يستحق التضحية.

لقد استطاع على عزت بيجوفيتش – بهذه الكلمات البسيطة- أن يضع إصبعه بقوة على الهدف النهائي للمحاكمة العبثية وهو: إستئصال الإسلام باستئصال النخبة من المفكرين المدافعين عنه!!

أليس هذا ما يحدث الآن في مصر..؟! إستئصال النخبة المدافعة عن الاسلام لاستئصال الإسلام نفسه..؟! لقد كان أعداء الإسلام وأعداء بيجوفيتش وإخوانه صرَبًا ينتسبون إلى المسيحية زورًا وبهتانًا ؛ فقد كانوا شيوعيين ملاحدة لا يؤمنون بدين يعتبرونه أفيون الشعوب ، وفي مصر أناس أسوأ من الصرب ينتسبون إلى الإسلام زورًا وبهتانًا ، ولا يؤمنون إلا بالسلطة و بمصالحهم وتجاراتهم وإمبراطوريتهم العسكرية ، التي استولت على ثروة مصر واستعبدت شعبها ، وامتلكت أرضها بغير وجه حق.

تمنيت لو كنت شاعرا لأن ما يعتمل في صدري من المشاعر المزلزة لا تقدر كلماتي العادية أن تعبر عنه كما عبّر الشاعر أحمد مطر.. وهو يصوّر مدى الإصرار والتصميم على الحرية مهما كان الثمن .. حيث يقول:

قطفوا الزهرة ... قالت : من ورائي برعمٌ سوف يثور

قطعوا البرعم ... قال : غيره ينبض في رحم الجذور

قلعوا الجذر من التربة ... قال : إنني من أجل هذا اليوم خبأتُ البذور

كامن ثأري بأعماق الثرى ... وغداً سوف يرى كل الورى  
كيف تأتي صرخة الميلاد من صمّت القبور..؟  
تبرد الشمس ولا تبردُ ثاراتِ الزهور...

[myades34@gmail.com](mailto:myades34@gmail.com)

(نشر المقال بجريدة الشعب الجديد في ١٣ نوفمبر ٢٠١٦م)